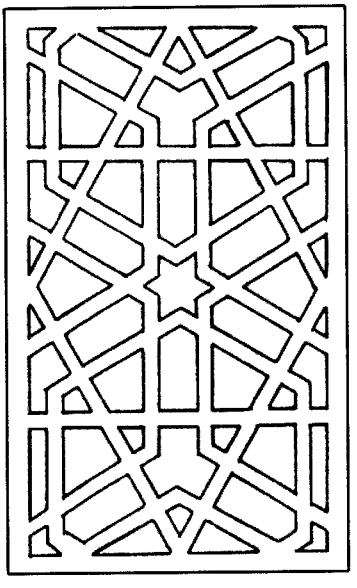

الزمرة الثانية

التعريف بالعلوم الشرعية وغيرها

- أهمية علم الحديث
- الفقه ثمرة علمي التفسير والحديث
- علم مصطلح الحديث
- علم العقيدة (علم الكلام)
- علوم اللغة العربية
- علوم البلاغة
- العلوم التطبيقية
- العلوم الإنسانية
- أسباب التقدم العلمي والتأخر فيه
- سبل النهضة بالعلوم
- تقسيم العلم إلى نافع وغير نافع
- معوقات العلم
- حظ النساء من العلم

١٤ أهمية علم الحديث

في جولتنا بالتحبيب في علوم الشريعة الغراء نصل إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن علم الحديث يعتبر العلم التالي للتفسير، والحديث نبع من منابع الشريعة، وقد كان الصحابة الكرام يولونه الاهتمام الكبير بعد كتاب الله عز وجل ، ذلك أن السنة النبوية هي الشارحة للكتاب المفسرة له ، وهي المثبتة لأحكام أخرى وكل تفصيلها إلى السنة النبوية ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١) . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه " فالسنة النبوية هي وحي ولكنه وحي غير متلو، يقرأه الناس بما يستطيعون من روايته .

و كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمعون من النبي عليه الصلاة والسلام قولا إلا حفظوه ونقلوه وأجهدوا أنفسهم في تلقيه وروايته على وجهه، ومن هنا نشأ عندهم التحرج من كثرة الرواية خشية التبديل والتغيير ، فكان المتثبت منهم إذا روى حديثا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعده : أو كما قال ، قال نحو هذا ، كل ذلك حرصا على أن يؤدووا هذه الأمانة على وجهها .

(١) سورة النحل / ٤٤ .

كتب الناس كتاب الله عز وجل وحفظوا سنة النبي صلى الله عليه وسلم حفظـــا استجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يفردوا كتاب الله بالكتابة حتى لا يلتبس القرآن بغيره، ولكن كتب كثير من الصحابة أحاديث عـــن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابة فردية ليست على سبيل التدوين الرسمي ، إلى أن جاء عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فكتب إلى ولاة الأمصار مرسوما أميريا : من أمير المؤمنين إني خفت ذهاب العلماء ودروس العـــلم فاكتبوا ما عندكم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانبرى العلماء في كل بلد يجمعون ما وصل إلى علمهم من كلام النبي صلى الله عليه وســـلم وكانوا يمزجون ذلك الحديث بآثار الصحابة وبشيء من الفقه فكان أول المؤلفات التي عرفها المسلمون مؤلفات السنة .

ولعل أقدم تلك الكتب التي وصلت إلينا موطأ الإمام مالك، ثم تلا ذلك كتـــب صحاح يعرفها الناس صحيح البخاري وصحيح مسلم وكتب السنن وكـــل هذه الكتب إنما هي دواوين للسنة تجمعها حتى لا يغيب منها شيء، ولكـــن جمع السنة بهذا الشكل لا يقوى عليه عالم مفرد ولذلك يقول الإمام الشافعي بأن السنة لا تضيع مع وجود هؤلاء الحفاظ يجمع هذا ما ليس عند ذاك، والسنة كتبت كتابة وثيقة فيها الإسناد وفيها الرواية وفيها كثرة الطرق والـــروايات التي تبين كل حديث كيف وصل من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصحابة ثم التابعين ثم تابع التابعين ومن بعد ذلك من علماء إلى أن تصـــل إلى أصحاب الكتب المدونة التي أحصوا فيها تلك الأحاديث وأوردوا فيها الأسانيد .

وقد نشأ إلى جانب كتب الأحاديث كتب تبين علم الرواة الذين رووا تلك الأحاديث وتتحدث عن عدالتهم وضبطهم أو غير ذلك لكي تبين ثقة الـــرواية ومستند الحديث ولكن العلماء رأوا أن هذه الكتب يعسر على غير

المختصـــين الاستفادة منها فجردوا تلك الكتب من أسانيدها وجمعوا للناس كتبا مختارة يصل إليها الإنسان بأدنى نظرة، فمن الواجب على المختص وغير المخـــتص أن يقـــبل على السنة ويغترف منها، فإن السنة النبوية ليست فقط مصـــدرا مـــن مصادر التشريع وإنما هي أدب بليغ و سيرة عطرة يجد فيها الإنسان القدوة الحسنة والأسوة الكريمة والأمثولة الفاضلة التي يحتذيها ، إنها تطبـــيق فعـــلي للإسلام، لقد كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القـــرآن فكـــان حـــياة رســـول الله وسيرته حكاية عملية لأحكام القرآن وتعليماته .

ومـــن هـــنا كان اهتمام الناس بالحديث فقرنوه بالقرآن واعتبروا ثقافة القرآن والحديث هي ثقافة الناس ، نلمس هذا في أدب الأدباء وشعر الشعراء نجد لهم الاقتباس الجميل ونجد لهم التضمين اللطيف لآيات القرآن التي جرت مجرى الأمثال ولأحاديث رسول الله من جوامع الحكم ، وهكذا كان القرآن والحديث مدار ثقافة الناس ومنبع حياتهم فهو لهم في دينهم وهو لهم في لغتهم وهو لهم في دنياهم . وجدير بالإنسان المسلم أن يختار كتابا من كتب السنة القريبة على أن يكون هذا الكتاب مشـــروحا مفســـرا له حتى لا يغيب عنه شيء من معاني حديث رسول الله فإن سنة النبي عليه الصلاة والسلام إنما هي للتطبـــيق فإذا لم يعلم الإنسان معنى الحديث يتعذر عليه تطبيقه وتنفيذ ما فيه من أحكام .

إن مـــن هـــذه الكتب القريبة التناول كتاب ألفه إمام جليل هو الإمام الـــنووي، وكـــتابه هو " رياض الصالحين " هذا الكتاب بين مؤلفه أنه ألفه للذيـــن لا يستطيعون الرجوع إلى كتب السنة المسندة، وهذا الكتاب فيه من جوامع الكلم وفيه من أحكام الإسلام الأساسية والترغيب والترهيب ما يجد

فيه الإنسان غنية في هذا الجانب الخلقي من الإسلام فإذا أراد أن يتوسع رجع إلى بعض كتب أحاديث الأحكام التي تبين له الحلال والحرام .

كما ألف العلماء كتبا صغيرة قريبة التناول ودعوا هذه الكتب الأربعين حديـــثا وأول من صنع ذلك عبد الله بن المبارك وآخرون بعده جمعوا أربعين حديثا لتكون قريبة إلى الصغار يستحفظونها عندما يستحفظون صغار السور، فكانت هذه الأربعون من الأحاديث تتناول نوعا أو أنواعا من العلوم يستفيد مـــنها ذلك الناشئ، على أن الإمام النووي اختار أربعين حديثا عليها مدار الإسلام تمثل المبادئ الأساسية للدين وقد بناها على أحاديث سبقه إليها ابن الصـــلاح، وهـــذه الأربعـــون النووية مفيدة كل الإفادة لمن لا يسهل عليه الرجوع إلى الكتب الكبيرة المفصلة .

إن العناية بالسنة النبوية على كافة المستويات هي التي تقطع الطريق دون التشـــكيك بها والتهجم عليها، إن التهجم على السنة ليس مقصودا به السنة ذاتها وإنما هو هجوم على الإسلام، ذلك أن أي تخل عن السنة النبوية إنما هو تعطـــيل للعمل بالقرآن، فالقرآن الكريم مدون ونصوص تفسيره وشرحه في السنة النبوية، فهي التي تبين كيفية الصلاة وما تدفع فيه الزكاة وتفصل صفة الحـــج وتبين للناس دينهم، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلوا كمـــا رأيتموني أصلي " ، ويقول : " خذوا عني مناسككم " ، فإذا انقطع الناس عن السنة فكأنهم هجروا هذا الكتاب الكريم وبعدوا عن الإسلام، والله المســـتعان عـــلى أن تعطى بالسنة حقها وينافح عنها الجهابذة الذين عاشوا ويعيشون لها وهذا مصداق حفظ الله لكتابه ولكل ما يؤدي للعمل بكتابه .

١٥ الفقه ثمرة علمي التفسير والحديث

رأينا فيما مضى أن القرآن والحديث هما منبع الأحكام الشرعية وهما أساس الإسلام، وثمرة علمي الحديث والتفسير هو الفقه الإسلامي، فإذا ذكر الفقه فإن الذي يذكر هو الشرع الذي يحتذيه الناس ويتبعونه، ومن هنا نشأت المذاهب الفقهية، فإنها ما أرادت إلا أن تطبق القرآن والحديث وتيسر للناس سلوك أحكام الله عز وجل والتعرف إلى دين الله تعالى.

يقول الله عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [١] . وقد كان نزول هذه الآية الكريمة أنه حينما كان المسلمون يجاهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو حين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل السرايا للجهاد، يحرص الجميع أن يذهبوا في تلك السرايا، لكن الله عز وجل دعا المسلمين إلى أن يوزعوا هذه الأعمال، فتكون منهم فئة مختصة تتلقى الأحكام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وللتفقه في دين الله، فإذا رجع أولئك المجاهدون استفادوا من هؤلاء ما تعلموا .

ولذلك تميز بعض الصحابة بأنهم كانوا من الفقهاء فليس كل الصحابة فقهاء، فقد كان في الصحابة من يشغله الجهاد، وكان منهم من يشغله

(١) سورة التوبة / ١٢٢.

الكسب، وكان منهم من يمهر في بعض الصناعات وقد عُني ابن حزم في كتاب له ببيان نسبة الصحابة إلى الفقه فقد كان منهم مكثرون وكان منهم متوسطون وكان منه مقلون، وهكذا كان الحال فيمن بعدهم في عهد التابعين وتابع التابعين . ومن هنا نشأت المذاهب الفقهية ، فالمذهب الفقهي ليس إلا مدرسة لفقيه تفرغ لمعرفة الأحكام وتابعه تلاميذه و أصحابه وقلدوه حتى نشأ له اتجاه يسلكه في فهم الأحكام الشرعية، وقد كان من دأب هؤلاء الأصحاب أن يحفظوا أقوال أئمتهم ليحفظوا أوقاتهم من تكرار البحث فيما سبق، ولم يكن أحد من الأئمة يأمر أو يرضى لأصحابه أن يكتبوا أقواله دون اقتناع، بل كان أكثر هؤلاء الأئمة يحث أصحابه على أن ينظروا من حيث نظر، وأن يجتهدوا من حيث اجتهد، ولكن ما كان عليه هؤلاء الأئمة من تفوق ونبوغ جعل أصحابهم يهتمون بحفظ أقوالهم وتدوينها إلى أن نشأت المذاهب الفقهية التي نعرفها .

إن تقليد الأئمة في أحكامهم واتباع المذاهب ضرورة يقضي بها مراعاة الاختصاص فليس في إمكان كل مسلم أن يتخصص في الفقه وأن يجتهد ويستنبط الأحكام فإذا تدبرنا في الأمر نجد أن الأئمة الفقهاء أنفسهم كانوا يقلدون غيرهم من أصحاب العلوم فكانوا يقلدون بعض علماء اللغة وبعض علماء النحو وبعض علماء التفسير، ومن هنا نشأت الخلافات الفقهية التي تحفل بها المراجع .

إن التقليد بهذه الطريقة ليس أمرا غريبا لأنه من باب سؤال أهل الذكر والله عز وجل يقول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[1] . ولكن مر على الناس عهود غلب على بعض منهم التعصب لبعض المذاهب وتداعى

(١) سورة النحل / ٤٣ .

الـــناس إلى غلق باب الاجتهاد في الأحكام ولو بلغ الإنسان أهليته، ومن هنا تحجـــر الفقـــه في بعـــض جوانبه بحيث أصبحت لا تناسب عصرا لاحقا، ولكـــنهم تحـــت وطأة التقليد والاتباع كانوا يعطلون ما لديهم من مواهب ويتبعون تلك المذاهب في حين يظهر لهم الحق في غيرها .

ومـــن هنا وجب على الفقيه المختص أن تكون لديه مرونة وأن يعمل ذهـــنه وأن يعمـــل فكره ولا يكون متبعا اتباعا أعمى ولا تقليدا أصم، وإنما يستفيد ويأخذ من حيث أخذ هؤلاء الفقهاء كما أن من الواجب على المسلم أن يكون له وسيلة يتعرف بها إلى أحكام الله عز وجل، فإذا كانت لديه أهلية أن يـــنظر ويستنبط فبها ونعمت، وإذا لم تكن تلك الأهلية متوافرة فيه فإن علـــيه أن يســـأل ، وهذا السؤال قد يكون لمجتهد حي موجود وقد يكون بالبحـــث عـــن أي فقيه قد سبق وعرف بالحجة والاجتهاد، أما أن يأنف الإنســـان مـــن تقليد المذاهب والاستفادة من تلك المجموعات التي تمثل تراثا فقهـــيا يعتز به المسلمون ويتداعى إلى اقتحام الاجتهاد دون أن يملك أهليته فإن ذلك من الظلم ووضع الشيء في غير موضعه .

إن الاجتهاد لم يكن آراء يطرحها الفقيه وإنما كان ملكة تتكون للإنسان من إتقان علوم كثيرة: فمنها علم اللغة، ومنها معرفة الإجماع ما أجمع عليه العـــلماء مـــن قـــبل، ومنها أصول الفقه، ومنها معرفة السنة، ومنها معرفة التفسير، ومنها علوم أخرى من البلاغة، ومن التأهل في تلك العلوم تتكون ملكـــة للفقيه يجتهد بها ويصل بها إلى معرفة الأحكام ، ذلك أن الفقه ما هو إلا العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية .

إن الفقـــه هـــو أساس حياة المسلمين، ويجب على المسلمين أن يوفروا الوسائل التي يستمر فيها رعيل الفقهاء بحيث يتلقى اللاحق عن السابق، فإذا

انقطع هذا الفقه فإنه تنتشر الفتاوى المضللة وينتشر الجهل مصداق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يقبض العلم ينتزعه من صدور العـــلماء وإنما يقبض العلم بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالم – وفي رواية إذا لم يبق عالما – اتخذ الناس رؤوسا جهالا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا " .

١٦ علم مصطلح الحديث

رأينا فيما سبق نماذج من علوم الشريعة الغراء في التفسير والحديث والفقه ، وقد يخال الإنسان أن هذه العلوم علوم ينبغي أن تكون منتشرة في المسلمين خاصتهم وعامتهم وأن ما وراءها من علوم إنما هي للمختصين مثل علم أصول الحديث أو مصطلح الحديث وعلم أصول الفقه .

إن هذين العلمين ليسا من العلوم التي يحتاجها المختص فقط إنما هما علمان يعتبران ميزانا للتشريع: فالأول منهما هو لضبط طرق الورود كيف تنقل الشريعة وكيف تصل إلى المسلمين، وأما الثاني منهما فهو لاستثمار النصوص ومعرفة دلالتها، فأصول الثبوت وأصول الدلالة يتكفل بهما هذان العلمان الكريمان اللذان هما مفخرة للمسلمين، ذلك أن الخبر يتأمل الإنسان كيف ينتقل إليه حتى يعرف هل نقل نقلا يورث اليقين أو غلبة الظن أم لا، وبعد أن يصل الخبر إلى الإنسان يتأمل في معناه ويدرك ما فيه من دلالة فانحصر الأمر في هذين الأمرين، ولذلك كان معيار العلم في الإسلام أن يتحقق من ثبوت الأمر ونقله، ثم يتحقق من معرفته وعقله وإدراكه .

ولا بد هنا من أن نتكلم بشيء من التفصيل عن علم أصول الحديث مصطلح الحديث، هذا العلم يعنى برواية الأخبار وبخاصة منها أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين، ويعتبر مفخرة للمسلمين إلى درجة أن بعض العلماء المختصين في التاريخ اشتهوا أن يكون للتاريخ مثل

هـــذا العلم فاحتذوا حذو علماء التاريخ وألف كتابا سماه مصطلح التاريخ، لأن تلك القواعد التي وضعها علماء المصطلح إنما هي قواعد عقلية توزن بها الأخـــبار ويتعرف إلى ثبوتها وعدمه، ولذلك اشترط علماء الحديث في كل خبر ينقل :

١- أن تتوافر في رواته صفة العدالة .

٢- وصفة الضبط .

٣- وأن يكون هذا الخبر منقولا جيلا عن جيل .

٤- وأن لا يكون في هذا الخبر شذوذ عن رواته الآخرين .

٥- وأن لا يكون فيه أمر يقدح في سلامة نقله .

هذه الشروط الخمسة لو أراد الإنسان أن يضيف إليها شرطا سادسا لما اســتطاع، ذلـــك أن الخبر عمدته رواته وهؤلاء يهم من أمرهم أن يكون عـــندهم مـــن الضبط والدقة والتثبت ما يحقق ورود الخبر على وجهه وأن لا يكـــون عـــندهم اســـتهانة وبعد عن العدالة بحيث يقدم على الكذب أو التساهل . ثم أن يكون هذا الوصف متحققا في راو بعد راو إلى أن يصل إلى مـــتلقي الخـــبر، وإذا كـــان هـــذا الخبر مرويا من أناس كثيرين فيجب ألا يخـــالف هـــذا الراوي غيره، كما يجب ألا يكون هناك قدح في الرواية لا يـــدرك إلا بعـــد مزيد من التأمل. هذه الصفات إذا ألم بها الإنسان فإنه يستطيع أن يطبقها في مجالات كثيرة لا يقتصر الأمر على حديث رسول الله صـــلى الله علـــيه وسلم وحده، ولذلك نجد أن علماء آخرين في فنون شتى كعلم اللغة وعلم التاريخ وعلم التفسير وغير ذلك من العلوم، استمدوا هذه الطريقة وبدؤوا يروون الأخبار والأمور والمعلومات بأسانيد يتثبتون فيها من رواتها فيحتجون بشيء منها ويطرحون ما لم تتوافر فيه صفات الاحتجاج .

إن على المسلم أن يفتح صدره لعلوم الشريعة وأن يلم بشيء منها، فإذا كان الإنسان العادي لا يستطيع أن يتمكن من هذا الإلمام فإن على المختص في العلم والآخذ منه بنصيب أن يكون له إدراك لهذه الطريقة، ذلك أن إدراك ذلك الجهد العلمي الذي بذله علماء الحديث في ضبط السنة وفي نقلها وروايتها يحدث عند الإنسان حبا وتمسكا بالسنة، وقناعة بأن هذه السنة عاش لها الجهابذة كما قال الإمام عبد الله بن المبارك حينما قيل له : هذه الأحاديث الموضوعة المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نصنع بها وكيف ندفع خطرها ؟ قال هذا الإمام : يعيش لها الجهابذة والجهابذة في الأصل معناها الصرافون الذين يتعرفون إلى الدراهم والدنانير المغشوشة والصحيحة .

وقد نشأ هذا العلم الجليل أول ما نشأ متناثرا في كتب الحديث، فقد أشار الإمام مسلم في مقدمة صحيحه إلى نبذ منه، كما أشار الترمذي في خاتمة سننه إلى أطراف منه، إلى أن قيض الله إلى هذا العلم أئمة أجلاء كتبوا فيه واحدا تلو الآخر فكتب فيه الإمام الرامهرمزي، وكتب فيه الحاكم، وأبو نعيم، والخطيب البغدادي، والقاضي عياض، إلى أن قيض الله له ابن الصلاح ذلك العالم النبيل، فأملى هذا العلم على أصحابه وتلاميذه شيئا بعد شيء ، وكتب فيه كتابه المعروف " علوم الحديث " والذي يسمى مقدمة ابن الصلاح ، وقد جاء بعد هذا الإمام الحافظ ابن حجر فلخص مقاصد هذا العلم في كتاب نخبة الفكر ، وهذا الكتاب يستغني به الطالب الذي يريد أن يلم بهذا العلم كما يجد فيه العالم المتعمق ما يشفي غليله .

وبحمد الله قد ألف كثير من الكتب الميسرة في هذا العلم الجليل حتى لم يبق عذر لمن له ولع في الثقافة الإسلامية إلا أن يأخذ من هذا العلم بنصيب ، فيعرف كيف نقلت هذه السنة نقلا أمينا دقيقا يوجد في نفس الإنسان ثقة، ويدحض الشبهات التي يثيرها من لا خلاق لهم ليكدروا

صفو السنة وليعوقوا الناس عن العمل بها. إن التعرف إلى هذا العلم ضرورة لا بـــد منها ، لأنه لا يجوز للإنسان أن يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يثبت عنه، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حدث عني بحديث وهو يعلم أنه كذب فهو أحد الكذابين "[1] أي إن رواية الحديث المكذوب إنما هي مشاركة لواضعه في تداوله وترويجه بين الناس، بل إن رواية الحديث الضعيف فيها حجب للأحاديث الصحيحة المنيرة .

وإن المسلم لا يستطيع أن يتعرف صحيح الحديث من ضعيفه وموضوعه إلا إذا عـــرف تلـــك البيانات التي يقدمها العلماء ليدلوا على الحديث بأنه مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو موقوف على أحد الصحابة، أو مقطـــوع مـــن كلام بعض التابعين، وبأن هذا الحديث صحيح أي بلغ الدرجـــة العليا من الضبط والثبوت، أو أنه حسن أي أنه فيه أصل ، أو أنه ضـــعيف، وللضـــعيف أنـــواع كثيرة فهناك المعضل والمرسل وهناك المدلس والمـــنقطع فـــإذا تعرف الإنسان إلى هذه المنقطعات استطاع أن يتثبت وأن يكون على بصيرة من أمره فإن رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ينـــبغي فيها التثبت، لأنه حجة، فإذا أدلى الإنسان بحجج ضعيفة فإنه يوهن تلك الحجج الصحيحة ويحجب نورها .

وعليـــنا أن نشـــيع ســـنة رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحها وحسنها حتى ينتفع بها الناس، وبذلك نكون ممن دعا لهم رسول الله صلى الله علـــيه وسلم بالنضارة، يقول صلى الله عليه وسلم: " نضر الله امرءا سمع منا مقالـــة فوعاها فأداها كما سمعها "[2] . فالأداء كما سمع الإنسان من رسول الله صـــلى الله عليه وسلم يقتضي بالضرورة ألا ينقل الإنسان إلا حديثا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) رواه أبو داود وابن حنبل .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه .

١٧ علم العقيدة (علم الكلام)

تكلمت فيما مضى عن نماذج من العلوم الشرعية التي ينبغي للمسلم أن يكون له نصيب منها سواء أكان مختصا أم ملما وكان الغرض من ذلك أن تكون الثقافة العامة في الناس مستمدة من الإسلام في علومه ومعارفه، وقد يقول قائل : إن وراء العلوم الشرعية التي جرت الإشارة إليها علوما أخرى، إذ لا يقتصر هذا الحقل المعرفي على التفسير والحديث والفقه وأصول الحديث وأصول الفقه فإن وراء هذه العلوم علوما أخرى لها قيمتها وأهميتها، فهناك التوحيد، وعلوم القرآن، والتجويد، والفرائض، وعلوم أخرى يعرفها المختصون، والباعث على ذلك الاقتصار هو التنويه بالعلوم التي يمكن للإنسان غير المختص أن يأخذ منها بنصيب يقل أو يكثر بحسب ظروفه وفرصه.

وإن هذه العلوم التي وراء ذلك إما أن تكون من جزئيات العلوم المذكورة سابقا ، وإما أن تكون من مقدماتها، وإما أن تكون مدرجة فيها .

فعلم التوحيد كان في الأصل ضمن التفسير، وهذا مسلك كثير من العلماء الذين كانوا يتعرضون في كتب التفسير عند آيات الصفات ونحوها من الآيات المتعلقة بأركان الإيمان ومسائل العقيدة وقد يتحصل من تلك الشروح كتب بحالها، ولينظر من شاء تفسير الفخر الرازي في ذلك .

وأما علوم القرآن فما هي إلا مقدمة لتفسير كتاب الله عز وجل .

وأمـــا الـــتجويد والفرائض وغيرها فبعض منها فروع من علوم أخرى معـــروفة مشهورة ، وبعض منها لا تكاد تكون إلا خبرات ومهارات يتقنها المسلم ليؤدي تلاوة كتاب الله عز وجل خير الأداء .

هـــذا وقـــد يظن أن علم التوحيد هو أشرف العلوم لتعلقه بالإيمان بالله تعـــالى فكيف يعد غيره كالتفسير أشرف منه والواقع أن علم الكلام يستحق التقديم، ولكن بما أن المراد من علم الكلام علم توحيد الله عز وجل وتوحيد الله - كما أشرت - كان العلماء يؤثرون التحدث عنه من خلال النصوص القرآنـــية والحديثية فلم يكن معهودا في زمن التابعين أن يفردوا الحديث عن علم الكلام إلا أن يكون تبعا لنصوص تناولت ذلك من كتاب الله عز وجل وســـنة رسوله، وإنما أصبح هذا العلم علما مستقلا حينما احتاج المسلمون أن يصـــدوا حملات الفلاسفة الذين تناولوا شيئا من عقائد الإسلام وحكموا فـــيها عقولهـــم الـــتي قد تدرك بعضا ويخفى عليها البعض، وإن من المعلوم أن للعقـــل طاقة فهو إذا أدرك أمورا قد تخفى عليه أمور ولا سيما الغيبيات، وقـــد وصف الله عز وجل به المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيب أي يصدقون بما أخبر الله عز وجل به مما لم يكن محسوسا لهم .

فعـــلماء الكلام أدوا مهمة كبرى اقتضاها زمنهم حين آثروا أن يخاطبوا أولـــئك المشـــتغلين بالفلسفة على قدر عقولهم ، سواء أكانوا من المسلمين أم مـــن غيرهم ممن لبسوا لبوس الإسلام كالزنادقة والمنافقين، وكانت تلك الحمـــلات لا يقصـــد مـــنها الاستيضاح والاستفهام وإنما كان يقصد منها التشكيك والهدم وكان خطرها على العامة لا على العلماء، فالعلماء يعرفون الحق من الباطل ويميزون الطيب من الخبيث، ولذلك كانت ثمرة جهود علماء الكلام أن وضعوا سدا منيعا في وجه أولئك المهدمين، فحفظوا عقائد العوام،

وانتهت تلك الحملة بعد أن صمد لذلك أئمة أعلام كالإمام أحمد بن حنبل وغـــيره ممـــن لقوا في سبيل الله شيئا كبيرا من الأذى والاضطهاد ، وأجرهم عند الله .

ولكن هل هذه الوسائل ظلت محافظة على حيويتها أم أن الناس يحتاجون أن يعودوا عودة حميدة إلى الوضع الذي كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والتابعون من بعده من أخذ هذه العقائد من خلال النصوص وربطها بالتطبيق من خلال الفطرة فطرة الإيمان وسلامة العقيدة، ولذلك نجد كثيرا من الأئمة أراحوا واستراحوا فوضعوا ما سموه عقائد نسبت إليهم نسبة تألـــيف، فقد وضع الإمام الطحاوي عقيدة سميت العقيدة الطحاوية، ووضع غيره من العلماء عقائد أخرى سميت بأسمائهم، وقد أرادوا من ذلك أن يقربوا السبيل على العامة، فيردوهم إلى الجادة، ويبعدوهم عن التعقيد، ويحموهم من الدخول فيما لا طائل تحته لقد كان علم الكلام ضرورة زمنية أخرى فالفرق والملـــل والأديـــان كـــلها تحتاج إلى جلاء لكي يخاطب هؤلاء بما يفهمون، ولذلـــك نجـــد أن علماء أجلاء كابن تيمية عنوا بالتحدث عن تلك الأديان ومخاطبة أصحاب تلك الفرق ليردوهم إلى سواء السبيل .

إن علم الكـــلام لا تزال له ذيوله الآن، فكثير من الناس يعتني به ولكن على وجه آخر، فإذا كان الأولون قد اعتنوا به عن طريق الفلسفة وبوسائلها فإن في هذه الأيام أناسا يعتنون به بصورة أخرى فيها الإغراق وفيها المبالغة، وديـــن الله عز وجل بين الغالي والمقصر، فإذا أمكن تعليم الناس دينهم بعيدا عن الأشواك و المشاكل الفكرية فإن من الواجب على من يعلمهم أن يسلك هذه الطريق .

وبعـــد أن بينا نبذة عن هذه العلوم الشرعية نجد أن الإسلام يولي قدرا مـــاثلا مـــن الحظ للتأييد والدعوة إلى العلوم الأخرى ذلك أن الله عز وجل يقول في كتابه الكريم : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِـــنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1] .

(١) سورة القصص / ٧٧ .

١٨ علوم اللغة العربية

إذا كانت العلوم الشرعية مقاصد وغايات للإنسان المسلم فإن هناك وسائل لا بد منها لإدراك وتحقيق تلك المقاصد، وإن من القواعد الشرعية المعروفة أن للوسائل حكم المقاصد إذا كانت تلك المقاصد لا تحصل إلا بوسائلها، ونص القاعدة المتعلقة بذلك : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

إن فهم علوم الشريعة وفهم كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يتطلب من الإنسان أن يكون له معرفة باللغة التي جاء بها هذا القرآن الكريم، ونطق بها الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام، وكتبت بها هذه الثقافة الإسلامية التي نعتز بها، ودون به هذا التراث .

وإن أهم علوم اللغة العربية علمان لا بد منهما لفهم كتاب الله عز وجل هما النحو والبلاغة . أما النحو فإنه علم تركيب اللغة واستعمال مفرداتها وهذا يشمل النحو والصرف، وقديما كان علماء العربية لا يفرقون في التأليف بين هذين العلمين، ومن المعلوم أن حياة اللغة إنما هي بحياة مفرداتها وتراكيبها وأسلوب التعبير بها ولولا ذلك لاتخذ كل إنسان لنفسه أسلوبا لا يفهمه الآخر ولكانت لكل بيئة لغة خاصة بها .

وقد يقول بعض الناس إن علم النحو ليس وسيلة للتفاهم ضرورية وإنما هو لفهم النصوص العربية السابقة وإنه يمكننا أن نتفاهم بأي لهجة أو بأي لغة

وهـــذا صحيح ولكن هذا لا يقبله مسلم، ذلك أن كتاب الله عز وجل هو مدار ثقافة المسلمين ، وهو أيضا مدار ثقافة العرب، فنحن نعلم فضل كتاب الله عـــلى لغـــة العـــرب، فقد كانت للعرب لغاتها المتعددة ولهجاتها الكثيرة والقرآن الكريم هو الذي جمع هذه اللهجات في لهجة واحدة كتب لها الخلود والبقاء .

وقديمـــا كان بعض علماء العربية يبالغون في أمر النحو والبلاغة وغيرها مـــن العلوم إلى درجة أن بعضهم كان يعدها أصلا للتفاهم، ولكن المنصفين مـــنهم اعتبروها تحسينا للكلام ذلك أنه في الواقع يحصل التفاهم بأي علامة يـــتخذها الإنسان وبأي قرينة يتوصل إليها من غير قواعد النحو ولكن مآل هـــذا تأصيل اللهجات المتفرقة والمفرقة للناس، وأن يكون الفهم بعيد المنال لأنـــك لا تســـتطيع أن تفهـــم كلام من يحدثك إلا إذا عرفت القرائن التي يعتمدها والملابسات التي يركن إليها . وميزة قواعد النحو أنك توصل الفهم إلى الســـامع لمـــا تريده بطريق أوضح لتبلغ به مرادك وتتكلم كما تكلمت العرب وتفهم كل ما جاء بلغتها وأي غاية أعز وأعظم من هذه الغاية .

إن مـــن فوائد قواعد النحو حفظ أصول العربية من النسيان فلولا هذا التقعـــيد الذي اهتدى إليه العلماء لنقلت إلينا أقوال وأشعار وأمثال وحكم لا نعـــرف الروابط بينها، فإما أن نحفظها كلها وقد ننطق بمثل ما نطقت به أو تخونـــنا المقدرة لأن السليقة والقوة والملكة التي كانت للعرب القدماء قد فقدها الناس بعد اختلاط الألسن وتمازج الشعوب، وإذا كان أحد الأعراب قد تباهى بأنه سليقي يقول فيعرب وأنشد قائلا :

ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فأعرب

فـــإن هذه السليقة أصبحت مفقودة الآن وأصبح من الواجب على كل إنســـان يـــريد أن يقيم لسانه بالقرآن أن يتقن من قواعد النحو ما يمكنه من ذلـــك، فإنه لا يمكن أن تنطق بلغة العرب كما نطقت وأن تقرأ هذا الكتاب الكريم كما قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلا بأن يكون لنا بعض الإلمام - إن لم يكن المعرفة التامة - بقواعد النحو، فإذا كان هذا النحو قـــد وضع لخدمة كتاب الله عز وجل، ولصيانة حديث رسول الله صل الله عليه وسلم، فكيف لا يعده أهم الوسائل لعلوم الشريعة .

ولنســـتمع إلى قصـــة النحو التي يعرفها الكثيرون، وهي أن علي بن أبي طالـــب رضـــي الله عنه نقل إليه أن أعرابيا قرأ قول الله عز وجل : ﴿ وَأَذَانٌ مِـــنْ اللَّـــهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ (1)﴾ . قرأ هذا الأعرابي كلمة رسوله بالجر فقال: " إن الله بريء من المشركين ورسوله " . أي عطف رسول الله على المشركين المتبرأ منهم بدلا من عطفه على لفظ الجلالة الذي هو المتبرئ من المشركين، وكان هذا حده مـــن العلم، فهب علي رضي الله عنه وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع قواعد الـــنحو، وأن يتقرى ويتلمس هذه القواعد من كلام العرب حتى كانت تلك النواة التي تداولها العلماء من عبد الله الحضرمي إلى الخليل بن أحمد الفراهدي وكان مآلها ومحطها عند سيبويه .

هذا ما كان من وضع النحو لخدمة كتاب الله، أما تأصيل النحو والعناية بـــه لخدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعرفها من نشأة سيبويه العلمـــية ، ســـيبويه هذا كان عالما من علماء الحديث وكان يجلس في حلقة

(1) سورة التوبة / ٣ .

يسمع فيها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع من أستاذه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من أحد إلا أخذت عليه ليس أبا الدرداء"[1] أي إن بعض الأصحاب قد يؤخذ عليهم شيء من المآخذ، واستثنى أبا الدرداء من تلك المآخذ فقرأ سيبويه هذا الحديث (ليس أبو الدرداء) وظن أن (أبو الدرداء) هو اسم (ليس) فهو مرفوع ، فرد ذلك عليه شيخه وأصحاب شيخه وخطؤوه وصححوا له بقولهم (ليس أبا الدرداء) وقالوا له لحنت وأخطأت فكبرت هذه التخطئة على سيبويه فترك مجلس الحديث وانطلق إلى حلقة من حلق القواعد العربية ومهر فيها حتى أصبح إمام النحاة .

إذن هذا العلم ألف أول ما ألف لخدمة كتاب الله ووضعت قواعده وأرسيت أسسه لخدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نحاربه ؟ و لم تكرهه الناشئة ؟

إن لهذا سببا أريد أن أقوله ولست أول من يقوله، فقد رفع صوته أحد الكتاب في مجلة عربية محلية وندد بالطرق التي يعلّم بها هذا العلم، وندد بهذا الاقتباس السيئ إذ يعلم النحو بنفس الطرق التي تعلم بها قواعد اللغات الأخرى، بطرق تستمد من هنا وهناك وهي طرق مخفقة، فإذا نجحت في بيئات شعوبها لأن لغاتهم ليست مثل لغتنا فإنها لا تنجح فيما بيننا .

إن قواعد النحو تعلم للناشئة بطريقة تكرههم بالنحو، ذلك أنهم يعطون هذه القواعد جملة وجزءا بعد جزء، فيعطى لهم في كل سنة من سنوات الدراسة مقطع من هذه القواعد التي هي جملة واحدة، وما سميت قواعد

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

إلا لأن بعضها يبتني على بعض ، ولأنها تشكل دستورا وقانونا لا بد من استيعابه حتى يستطيع الإنسان أن يستفيد منه، فإذا أخذت قانونا وقرأت بعض مواده و لم تكمل قراءته كيف تستطيع أن تحكم، فقد يكون بعد هذه المادة مواد أخرى تقيدها أو تستثنى منها وهكذا قواعد النحو .

ولذا يجب أن يتعلم النحو مرة واحدة بصور متدرجة يؤخذ فيه في إحدى السنوات جميع مباحث النحو ولكن في صورة مجملة موجزة ، ثم ينتقل في السنة التي بعدها فيؤخذ النحو كله ولكن بصورة أوسع ، وهكذا يتدرج به الإنسان حتى يستطيع أن يطبقه، أما إذا أخذ المتعلم جزءا منه، كالمرفوعات في سنة ، ثم انتقل إلى السنة التي تليها ليأخذ المنصوبات أو المجرورات وقد نسي ما تعلمه في السنة الماضية ، ثم يطلب إليه أن يعرب الكلام ويفهم الجمل فإنه يعاني ما يعاني فتحدث الكراهة لهذا العلم الجليل الذي هو وسيلة من وسائل فهم كتاب الله عز وجل .

وقد كان علماء المسلمين يسلكون هذه الطريقة في كتبهم فالإمام الزمخشري كتب كتابا في النحو مختصرا أسماه الأنموذج ثم كتب كتابا أوسع منه سماه المفصل وكتب ابن هشام كتبا عديدة متدرجة من قطر الندى وشذور الذهب والمغني وما بعده وهكذا .

فإذا أخذنا أصغر كتاب في النحو وهو كتاب الأجرّومية لنلقن هذا الصغير أن اللغة العربية فيها أسماء يعتريها الرفع وأخرى النصب وأخرى الجر وفيها أسماء وأفعال وحروف، فإنه يعلم أنه ملك أمرا يستطيع أن يحاكم به الأساليب والتعابير . وهذه الطريقة تحبب الناشئة بهذا العلم الذي اعتبره العلماء سلما للعلوم الأخرى واعتبروه وسيلة لفهم كتاب الله عز وجل ، فإذا بنا نعطيه لهذه الناشئة بطريقة تجعل حفظه عبئا عليهم لا يستطيعون

أن يستثمروه لأنهم لا يستطيعون أن يستوعبوه، إذ يطلب منهم أن يجمعوا بين معلومات مفرقة على خمس سنوات وأن تبقى هذه المعلومات مترابطة متصلة وأن يبقى الاهتمام بها مستمرا ، وهذا أمر فيه عبء ثقيل وفيه تضييع للجهود .

وكذلك ينبغي أن تكون وسائل التعليم أو التوضيح مستمدة من التراكيب البليغة من النصوص الذي تشد هذا الإنسان إلى لغته وتبين له ضرورة تعلم هذا العلم، وأن نستبعد التراكيب الصناعية التي تجعل هذا العلم جافا، وبذلك نكون قد تعلمنا ما نعرب به القرآن كما نتعلم حفظه كما جاء في الحديث الشريف وكما جاء في الحديث الآخر الذي يقول : " تعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا "[1] .

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن زنجويه .

١٩ علــوم البـلاغة

أشـــرت فـــيما مضى إلى أن هناك علمين لا بد من إدراكهما والتعرف إلـــيهما لفهم كتاب الله عز وجل وإدراك العلوم الشرعية والأخذ بزمامها، وهمـــا أيضا علمان ضروريان للحفاظ على مقومات هذه الأمة وهي تراثها ولغـــتها، وبينت ما يختص بعلم النحو، وأشرت إلى أن العلم الذي يقترن به في الأهمـــية هو البلاغة ، والبلاغة ذلك العلم الذى قد يظنه بعض الناس أمرا تكميليا وأنه يحتاج إليه الشعراء والأدباء وإن بقية المثقفين في غنية عنه، وقد فـــات هؤلاء أن علم البلاغة مكمل لعلم النحو والصرف وهما عمدة العلوم العربية .

إن حياة اللغة بحياة أمرين : بحياة مفرداتها من جهة، وتراكيبها وأسلوب التعبير بها من جهة أخرى، وإذا كانت التراكيب لا تتم إلا بقواعد النحو فإن أســـاليب التعبير لا تتم إلا بالبلاغة، والبلاغة كما عرفها بعضهم هي ضبط طرق الاستعمال للكلام البليغ والتمرين على إفادة التعبير لأن يفهم الجميع، فالـــبلاغة هي أنك تخاطب كل إنسان بما يقتضيه حاله، وأن تقدم لكل مقام مـــا يتطلبه، فإذا كنت في مقام التأكيد أكدت، وإذا كنت في مقام الوصف وصفت وشبهت، وإذا كنت في مقام التجريد جردت .

وهكـــذا نـــدرك أن اللغة العربية لا تستتم قوتها وجدارتها إلا إذا تناول الإنسان هذين الأمرين الأساسين وهما النحو والبلاغة وإذا كان النحو يتناول

كيفـــية أخـــذ المفردات وتركيبها لدفع الخطأ ولتفادي البطء في الفهم فإن الـــبلاغة تتصل بكيفية إسناد الكلام وأسلوب العرب في التعبير، فإذا أخذت اللغة العربية وجردها من بلاغتها تكون كمن يترجم ترجمة حرفية، والترجمة الحرفية تخرج اللغة من بهائها وخصائصها، ولذلك عني العلماء بتدوين البلاغة وتتبع الأساليب وما فيها من جمال لفظي وما فيها من تصرف في طرق أداء العبارة وطرق التعبير كما هي في نفس المتكلم .

لقد كانت البلاغة أول ما نشأت مقترنة بالنحو، فقد أشار إليها سيبويه في كتابه، ثم تكلم عنها قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر، وأسهب فيها الجـــاحظ في البـــيان والتبيين، وكان خاتمة المطاف فيها ما كتبه عبد القاهر الجـــرجاني الذي توفي في أواخر القرن الخامس وقد كتب في ذلك كتابين، والطـــريف في الأمـــر أن هذيـــن الكتابين ما كانا إلا خدمة لكتاب الله عز وجل :

الأول منهما كان صريحا في عنوانه ومضمونه حيث سماه دلائل الإعجاز أي دلائـــل إعجـــاز القرآن الكريم، ونحن نعلم أن القرآن الكريم هو معجزة رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم التي تحدى بها العرب ليبين لهم أنه كلام الله عـــز وجـــل ولـــيس كلام البشر، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشـــر ســـور مثله فعجزوا ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله – وأقصر السور ثلاث آيات – فعجزوا .

والإعجـــاز القـــرآني إذا كان جليا واضحا في عصر الصحابة لأن من حـــاول أن يقـــارع القـــرآن الكريم ويضاهيه أتى بكلام غث كان نكالا عليه وخيبة له فإن هذا الإعجاز قد لا يدركه من جاء بعد العرب الفصحاء إلا بشـــيء مـــن البيان ، وهذا ما أراده الجرجاني رحمه الله فقد تناول ما في القـــرآن من جوانب الإعجاز من بلاغته وفصاحته وأساليبه وأثبت بالبرهان والمقارنـــة وبما أشار إليه مما طرح في صدر الإسلام من منافسات ومناظرات

ممن ادعى النبوة، فبين كيف أن ذلك الكلام منحط عن أدنى وجوه البلاغة، فضلا عن أن يبلغ أرقى البلاغة وهو كتاب الله عز وجل .

أما كتابه الآخر، وهو أسرار البلاغة، فقد وضعه في قواعد يحتكم إليها من يريد أن يعرف بلاغة الكلام من انحطاطه .

إن تفسير كتاب الله عز وجل إنما بدأ الناس به من خلال المأثور، ومن خلال تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالحديث، ثم تطرقوا إلى تفسيره بالعربية فكان كتاب ابن جرير وإن تمام التفسير إنما نشأ عندما انبرى الإمام الزمخشري، وهو الإمام الآخذ بناصية اللغة العربية في شتى علومها وبلاغتها ونحوها وغريبها وكان له كتاب أساس البلاغة، هذا الإمام الجليل أراد أن يفسر كتاب الله عز وجل وأن يجمع إلى تفسيره بالعربية التي سبقه إليها من سبق أن يفسره بالبلاغة، فكانت له لمحات وروائع في ذلك الكتاب، ونفع الله به وخدمه الناس وتقفوا أثره، فالبلاغة ما هي إلا وسيلة لفهم كتاب الله عز وجل وما هي إلا استكمال لمقومات هذه اللغة .

والملحوظ أننا أهملنا هذا العلم وتجنبناه لما داخله في آخر زمن التأليف فيه من تعقيد ، وما غلب على الكاتبين فيه من أخذ بالصنعة، ووقوف عند الألفاظ، ولهذا سبب تاريخي لا بد من الإشارة إليه، وهو أن اللغة العربية ليست لغة العرب وحدهم وإنما هي لغة المسلمين وقد دخلت شعوب كثيرة في الإسلام أو دخل إليها الإسلام ، وكان من إنصاف وإخلاص هذه الشعوب أن تخلت عن لغاتها، وإن لم تتخل عن النطق بها فقد تخلت عن الاهتمام بها ورام هؤلاء أن يتعلموا هذه اللغة وظنوا أن في إمكانهم أن يقيسوا هذه الأمور قياسا، فتعلموا قواعد النحو وكان الأمر فيها يسيرا لأن قواعد النحو تتصل بالمفردات وبعض التراكيب، ولكنهم حينما توغلوا إلى أساليب

التعـــبير خـــانهم الحـــظ، فـــأخذوا تلك الكتب التي كانت في أولها مرتبطة بالنصـــوص وكانـــت تقوم على حفظ الأقوال الفصيحة وتحليلها وإذا بهم يحـــاولون أن يقعـــدوا هذه الكتب ويجعلوها مقاييس، وإذا كانت المقاييس في النحو سائغة فإنها في البلاغة شيء آخر، فقد كتب الإمام السكاكي كتابا سمـــاه مفـــتاح العلوم وتناول فيه النحو والصرف والبلاغة وكان كتابه هذا عامرا بالشواهد والنصوص البليغة، ثم اختصره القزويني، وجاء بعده من شرح هـــذا الكـــتاب وبـــدأ يدخل التراكيب الصناعية، وما أضر باللغة إلا تلك التراكيـــب التي تنحت نحتا مقطوعة عن بيئة العرب وبعيدة عن استعمالاتهم، وإنـــه لا يعين على البلاغة وعلى إدراكها إلا حفظ الأقوال الفصيحة، وفي الحق لا أنفع ولا أرفع من حفظ القرآن الكريم، فمن أراد أن يكون بليغا على الســـجية وعـــلى الســـليقة فليكثر من قراءة القرآن الكريم لإدراك أسراره، مستعينا بالتفاسير التي أشرت إليها .

٢٠ العلوم التطبيقية

مضـــينا شوطا في التعريف ببعض العلوم الشرعية وبعض العلوم العربية التي لا بد منها للمسلم إلماما أو تخصصا أو إدراكا ، وإذا كان من حق العلم – الـــذي أمرنا الله عز وجل أن نزداد منه – أن ننوه بشيء منه فإن علينا أن نشير إلى مبدأ مهم جدا، وهو أن العلوم الأخرى الدنيوية لها من حوافز الحياة ما يكفيها وهذه سنة التشريع ، بخلاف العلوم الدينية .

ولهـــذا بين العلماء أن القرآن الكريم مليء بالحض على ما لا تقدم عليه الـــنفس من طبيعتها، فنحن نقرأ في إقامة الصلاة كثيرا من الآيات، وكذلك في الـــزكاة، وكذلك في الإيمان ولكن الأمور التي في النفس دواع لها يأتي ذكـــرها عـــلى ســـبيل الوصف والإشارة لتكون في ضمن المباحات فليس في القـــرآن ما يحضنا على الأكل مثلا، لأن في النفس ما يدعو إليه وإنما إذا أقدم الإنسان على الإسراف فيه، أو الامتناع منه فإنه يواجه بنصوص أخرى تحذره من الإسراف ، أو من إلقاء نفسه إلى التهلكة .

وهكذا العلوم، فالعلوم الدنيوية التي تقتضيها ضرورة الحياة ويحتاج إليها الإنســـان ليعـــيش حياة سعيدة لكي يؤدي ما أمره الله عز وجل ، فإن هذه العلـــوم هـــي عـــون أيضـــا على عبادة الله فما هي إلا وسائل . وقد رأينا أن للوسائل حكم المقاصد وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وإذا كـــان الإسلام قد اعتبر المصالح أساسا من أسس الدين لأنها ترجع إلى حفـــظ الأمور التي اتفقت الشرائع على الحفاظ عليها وهي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال. هذه الضروريات الخمس جاءت كل الشرائع بالأمر بها والحفاظ عليها وأكثر ما شرع الله عز وجـــل إنمـــا هو لتحقيق وجودها أو لتحسين أحوالها أو لإيجادها في صورة كاملة، فتلك الأمور الضرورية والتحسينية والحاجية إنما هي من تمام عبادة الله عز وجل.

ولذلـــك نجـــد أن المســـلمين حينما علموا العلوم الشرعية في المساجد وفـــتحوا لها تلك الجوامع المشهورة الكبيرة التي ما هي إلا جامعات رأوا أن الحاجة تقتضي أن تعلم هذه العلوم الأخرى ، فلما رأوا أن تعليمها وما تحتاج إلـــيه مـــن تجارب ومختبرات لا يناسب جو المسجد، جو العبادة والسكينة والهـــدوء، افتـــتحوا لذلك المدارس، وكانت هناك دار الحكمة التي أنشأها المـــأمون والمدرســـة النظامية التي أنشأها نظام الملك فهذه المدارس ألحقوها بالمســـاجد وكـــان فيها مكتبات تشتمل على شتى العلوم، فكانت هي النبع الذي يستقي منه الناس وكانت هي أصل الصناعات وأصل الخبرات التي بنى المسلمون فيها حضارتهم، فهذه الحضارة التي بناها المسلمون لم تنشأ من علوم الشـــريعة مباشـــرة ولا من علوم اللسان العربي أصلا وإنما نشأت من تطبيق علـــوم الشريعة، فعلوم الشريعة تقضي بأن يكون المسلم قويا، فالمؤمن القوي خـــير وأحـــب إلى الله من المؤمن الضعيف، فكان من الحفاظ على الشريعة ومـــن كمال علومها أن تستكمل تلك المعارف والخبرات حتى يكون للناس عدتهم، وحتى يكون للمسلم صحته وموطنه وسكنه ومرافق حياته .

عـــلى أن هذه العلوم التي هي من قبيل الوسائل مرت بحقبة خطيرة على المسلمين ولكن الله عز وجل أوجد من الضمانات والسدود ما كفى المؤمنين شرها ، كانت تلك العلوم موروثة ومكتوبة من خلال عقائد وبيئات وأفكار

اختلطت بها، فقد كتبت هذا العلوم عند اليونان وترجمت كتبها وكان المسلمون في غاية الوعي والنباهة حيث أخذوا هذه العلوم وخلصوها مما لابسها مما ليس منها، فالعلم يدعو للإيمان، وإذا كانت بعض العلوم قد ظهرت في صورة مضللة تخرج بعض الناس عن عقائدهم فإن ذلك أمر دخيل على هذه العلوم، وهي شبهات تحوم حولها ويجب تجريدها منها .

وقد ذكر المؤرخون أنه إلى جانب عملية الترجمة كانت هناك عملية رقابة، وهي رقابة حكيمة و لم تكن سلاحا مسلطا على العلم، وإنما كانت مصفاة تخرج الزيف الذي اختلط بالعلم، يذكر ابن خلدون أنه حينما ترجم علماء المسلمون كتاب الفلاحة النبطية، وهذا الكتاب هو أحد فروع العلوم الطبيعية، وهو كتاب يوناني يتناول أحوال النباتات وأسباب تنميتها وكيف تدفع آفات الزراعة عنها، كان في هذا الكتاب ما هو خارج عن حدود الديانة فاقتصروا عند ترجمته على ما ينفع ولا يضر، فقد كان في هذا الكتاب نسبة التأثير إلى الطبيعة فكلما تناول المؤلف أمرا من الأمور سواء كان هذا الأمر مفيدا أو ضارا في نشأة تلك النباتات أو في تلفها كان ينسب ذلك إلى الطبيعة، ولا ينسبه لله عز وجل الخالق البارئ المصور الذي له الأسماء الحسنى، فما كان من شأن المسلمين إلا أن جردوا هذا الكتاب وأمثاله من تلك الوثنيات والخرافات، وأخذوا هذا العلم مأخذه الصحيح .

وهناك خبر آخر وهو أن المأمون كلف اليزيدي بمطالعة كتب الجاحظ في الإمامة ثم طالعها هو نفسه ليرى ما فيها .

هذه الرقابة الرفيقة لا يقصد منها الحجر على عقول العلماء وإنما يقصد منها وضع فيصل بين الحق والباطل لقطع دابر الاستغلال من أناس يحملون أفكارا خبيثة ثم يأتون إلى هذه العلوم النظيفة فيشوهونها ويلبسون على الناس أمر دينهم ، فالعلم يدعو للإيمان ومن هنا كان قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[1] . وقد جاءت هذه الآية الكريمة في معـــرض تعـــداد ما خلق الله عز وجل وما ذرأ في هذا الكون، مما يدعو إلى توحيد الله الخالق ودفع الشبهات وعدم الوثنية التي بثتها علوم اليونان، والتي جعلت المسلمين يتحاشون من كثير من العلوم لأنه كان فيها نسبة التأثير من الطبيعة أو كانت مختلطة بالوثنيات وكان من الصعب حينئذ أن تخلص منها فضـــربوا صفحا عن هذه العلوم كلية لكي يحفظوا عقائد الناس، فإن حفظ الدين مقدم على غيره .

وهـــذا ما يجب أن ينهجه المسلمون اليوم في أخذ هذه العلوم التي مرت بالمســـلمين فترة قعدوا عن مواصلة البحث فيها ثم أصبحت قيادتها وزمامها لغـــير المسلمين، وبدأت تعود إلى المسلمين مشوبة اختلط فيها الحق بالباطل لأن فـــيها النظريات التي يلبس بها على عقائد المسلمين حين تعلم لناشئتهم، فـــإن هـــذا أمـــر خطير يجب أن تجري نفس العملية فيؤخذ العلم نقيا من الشوائب وتبعد عن هذه الناشئة ما يكدر عقيدتها وما يخل بإيمانها، فإذا كانت هذه البحوث لها مجال فإن مجالها بعد أن تستقر نفوس هؤلاء الناشئة بالإيمان وأن يصـــبح عـــند الطالـــب أو الناشئ مقدرة البحث والفحص والتمييز أي في المستويات الدراسية العليا التي يستطيع فيها الدارس أن يستخلص الحق من الباطل و يميز الطيب من الخبيث .

إن مـــن الواجـــبات الملحة وضع الخطط المحكمة التي تبين كيف يجب أن تصاغ هذه العلوم صياغة إسلامية كما ترجمت ترجمة إسلامية وكما بنيت بـــناء إسلاميا كانت فيها جهود العلماء المتدينين الذين اتخذوا من هذا العلم منفعة لحياتهم ولأخراهم فلا خير في علم ينفع الإنسان في حياته ولكنه يلقى به سوء المصير .

---

(١) سورة فاطر / ٢٨ .

٢١ العلوم الإنسانية

إن الإســـلام كما يحض على تعلم علوم الشريعة يحض على تعلم علوم الحـــياة الأخرى، ويجعل من واجب المسلم أن يكون قويا وصحيحا وقائدا لغيره من الأمم والشعوب، وهذا أمر إذا كان معروفا ومدركا لدى المختصين فإن ما وقع من غيبة عن تراثنا وبعد عن حضارتنا و علومنا جعل بعض الناس يغفل عن مآثر المسلمين في العلوم .

إن المسلمين هم الذين كانوا واسطة هذا العلم، فقد كانت هذه العلوم معرضـــة للاضـــمحلال وكانت آخذة في الانحطاط بعد أن أصبحت نظرية لا تفيد في حياة الناس إلا قليلا، فجاء المسلمون وأخذوا هذه العلوم ونقلوها نقـــلا أمينا بعد أن نقدوها وطوروها، وكانوا جسرا لمن بعدهم ولكنه جسر يـــنمو ويزيد، إنه جسر واع متحرك، فلم يكن المسلمين مترجمين كما زعم أعداء الإسلام من بعض المستشرقين الذين طاب لهم أن يصفوا المسلمين بأنهم كانوا نقلة، وأنهم كانوا أوعية تحمل هذا العلم لا تعرف ما فيه ولا تطوره .

وإذا كـــان بعـــض هؤلاء قد غمطوا المسلمين حقهم فإن الله عز وجل قـــيض مـــن العلماء الغربيين أنفسهم من نطق بكلمة الحق، والحق ما شهد بـــه الأعداء، وإذا كان بعض المستشرقين قد أنصفوا العرب المسلمين حقهم فـــإن ذلك كان عرفانا و لم يكن إطراء و لا تزلفا، فإنهم في هذه العصور التي بكـــل أســـف لا يوجد بين المسلمين من ينهض لهم فيخطئهم إذا أخطؤوا،

أو يـــرد عليهم إذا تجاوزوا الحقيقة، كان منهم الإنصاف وكان منهم كارل بروكـــلمن ذلك العالم الذي يعرفه المشتغلون بالتأليف فهو عالم الببلوغرافيا الـــذي كتـــب عن العلوم وتناول إحصاء الكتب وشرح تلك الكتب، كان مضـــطرا - وهـــو يؤرخ للأدب العربي، أي للثقافة العربية - أن يبين مآثر العرب وجهودهم في تلك العلوم، وكتابه هذا بالألمانية .

يقـــول بروكلمان : كانت تلك العلوم موجودة عند اليونان والرومان وكان أول ما التقى المسلمون بهذه الكتب أيام العباسيين (ويقصد من ذلك أن ذلك الاهتمام الشديد إنما نشأ أيام العباسيين وإلا فإن من المعلوم أن الأمير الأمـــوي خالد بن يزيد بن معاوية الذي عزف عن الحكم وأقبل على العلم كـــان معنيا بهذه العلوم الطبيعية) فإذا بهؤلاء المسلمين يترجمون تلك الكتب وكان خلفاؤهم - وبخاصة المأمون - مولعين بالاهتمام بها وتشجيعها .

والجدير بالتنويه أن النهضة شملت شتى أنحاء العلوم :

ففـــي الفلسفة نشأت عند مؤلفي المسلمين فلسفة بدأت بظاهرة خلقية خاصة، كما يتضح ذلك في مؤلفات الجاحظ الذي جعل جل اهتمامه الناحية العلمـــية، ثم كان معاصره يعقوب الكندي الملقب فيلسوف العرب، ثم كان بعد الكندي فلاسفة آخرون تناولوا تلك العلوم، فكان منهم الفارابي .

وكـــان لعلماء المسلمين في الرياضيات جهود كبيرة فقد أخذوا ما كتبه إقليدس وأتموا من بعده، فكان هناك ابن الهيثم والخوارزمي وأولاد موسى بن شـــاكر الذين عنوا بعلوم الهندسة والفلك والصناعات الفنية وقياس السطوح وكانـــت لهم فيها مؤلفات عديدة، كما امتاز الرياضي الكبير ثابت بن قرة بأبحاثـــه القيمة في نظرية الأرقام حتى أطلق عليه بحق أنه كبير رياضيي ذلك العصـــر، وفي أواخـــر تلك العصور وضع محمد الكرخي مؤلفا في الحساب

لخـــص فـــيه أهم ما وضعه المؤلفون السابقون في هذا العلم وأهداه إلى وزير البويهيين فخر الملوك فكان له أثره من التشجيع والحث .

أمـــا في الفلـــك فقد نشطت جهود المسلمين بعد اتصالاتهم بالإغريق والهنود فأخذوا من العلوم الفلكية مثل ما نقلوا عنهم من العلوم الرياضية فقد تـــرجم الخوارزمـــي كثيرا من الكتب المؤلفة في هذا العلم، كما أمر المأمون بتصحيح خرائط بطليموس الفلكية بعد الأرصاد التي قام بها في بغداد ودمشق ووضع طريقة للقياس بالدرجات، وتمكن المسلمون من تحديد أماكن الأجرام الســـماوية ومداراتهـــا بواسطة آلات القياس والرصد التي ابتكروها لذلك، وبعدئذٍ جاء أحمد الفرغاني فوضع كتابا في العلوم الفلكية نقل بعد ذلك إلى اللاتينـــية وكان أهم المراجع في العصور الوسطى في أوروبا، وإن أبا معشر تلمـــيذ الكندي له أثر كبير . وهذه الجهود الفلكية انتهت إلى تأليف السفر الضخم الذي وضعه علي بن أبي الرجال بشمال إفريقية ونقله علماء أوروبة إلى اللغة اللاتينية سنة ١٥٥١ م .

أمـــا في الطـــب فـــلا يحتاج إلى كثير بيان فقد كانت مؤتمرات الطب الإســـلامي بـــيانا لجهـــود العلماء المسلمين في هذا المجال واطلع الناس على غرائب من سبق المسلمين في علم الطب بحيث جعلوا آثار أبقراط وجاليلوس شيئا مبدئيا بعدما توصل ابن النفيس وأبو بكر الرازي وابن سينا وابن رشد إلى كشـــوف وبحوث وتشخيص لأمراض كانت مجهولة ووضع علاج لها، وهذا جعلهم ينشئون طبا متميزا .

ثم كان لهم في الكيمياء جهود كثيرة وكان هناك جابر بن حيان تلميذ الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية، وكان علم الكيمياء في تلك العصور يعتـــبر أسرارا غامضة، كان مقتصرا على تحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة،

ولكن العلماء المسلمين طوروا هذا العلم وجعلوه معقدا لكثير من الصناعات وجعلوه وسيلة لهم في السلم والحرب .

وهكـــذا كانت مآثر العرب في العلوم المدنية وعلوم الحياة برهانا عمليا عـــلى أن الازدياد في العلم لا يقتصر على علوم الشريعة وإنما يجب أن يوجد في كـــل مجال وهذا مصداق أمر الله عز وجل لنبيه وللمسلمين (وقل رب زدني علما) .

٢٢ أسباب التقدم العلمي والتأخر فيه

تكلمنا فيما مضى عن العلوم الشرعية ووسائلها من العلوم العربية وعن نمط آخر من العلوم التي يحتاجها المسلمون في حياتهم، ورأينا كيف أن العرب المسلمين كانت لهم مآثر وفضائل في تلك العلوم بأجمعها ولا سيما علوم الحياة، فقد سبقوا فيها شوطا بعيدا وحققوا فيها تقدما ملموسا ورأوا أن تكون لهم ثقافتهم العلمية المتميزة تلك الثقافة التي لا تتنافى مع الإيمان ولا تدع مجالا لدخول الشوائب، بل صبغوا تلك العلوم صبغة عربية إسلامية.

وإن من الملحوظ اليوم بالنسبة للمسلمين أنهم تأخروا في هذه العلوم، وهذا التأخر إما أن يكون على سبيل التبعية لغيرهم فيها، وإما أن يكون في أخذهم ثمرات تلك العلوم دون أن تتوفر لديهم وسائلها وأهليتها وملكاتها، فما سبب هذا التأخر وما سبب التقدم العلمي السابق؟ إن التقدم العلمي السابق للمسلمين كانت له أسباب وعوامل كثيرة لا يمكن ربطها بأمر دون آخر ولكن كل ما يعرفه العالم أن الملمين كان لهم قصب السبق فيها، وقد كانت من تلك العوامل أمور فقدناها في هذه الأيام، فقد كان إخلاص الطرفين العالم والمتعلم، وكان استغراق الوقت كله في العلم، وكانت بساطة الأحوال الاجتماعية والتقلل من العيش، كل ذلك كان سببا من أسباب حوزهم القدح المعلى في تلك العلوم ولكن هل يصلح أمر الناس على هذا في كل عصر وفي كل مكان؟ لابد من استحضار الحكمة المعروفة: لا تكرهوا أبناءكم على أخلاقكم (أي عاداتكم) فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم .

إن هناك أمورا ينمى إليها هذا التأخر العلمي الذي نشعر به وتلك التبعية المطلقة في العلوم لغير المسلمين، ومن أهم هذه الأسباب ذلك الوقوف المفاجئ الذي عرض للعلوم عند انطفاء مدنية الدولة الإسلامية بسبب الفتن، وقد وقفت جهودهم عند المتقدمين واغتروا بمواصلة التأليف في العلوم، فإن التأليف أصبح صورا مكررة وتداخلت العلوم بعضها ببعض لفقد التمييز والملكة التي تستطيع أن تتصور العلم تصورا صحيحا، كما أنه طرأ الإعجاب بآراء المتقدمين والسابقين وراج المثل الذي يقول : (ما ترك الأول للآخر شيئا)، وقد قال بعض المحققين : ليس أضر على العلم من هذه المقالة، وقابلوها بمقالة أخرى معاكسة : (كم ترك الأول للآخر)، ومن هنا ألف الإمام الشوكاني كتابا جليلا سماه " البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع . " وأثبت بالأمثلة العديدة التاريخية أنه بعد ذلك القرن وبعد انقضاء عصور المتقدمين وجدت مواهب كثيرة، وكانت هناك نبوغات عديدة، فإن هذه الأمة الإسلامية كالمطر أو الغيث : لا يعرف أوله خير أم آخره .

كما أنه انقطع التمرين العملي وأصبحت البحوث نظرية، فقد أولع المتأخرون بالبحث، وأصبح أكثر ذلك البحث لفظيا حتى إنك ترى كثيرا من أبحاث العلوم التطبيقية تسربت إلى كتب العلوم الأخرى كما في علم الكلام الذي هو علم عقلي بحت لا مجال فيه للمحسوس .

ومن هذه الأسباب التي أثرت ودعت إلى تأخر العلوم الطموح للمشاركة في جميع العلوم من أكثر المتعلمين، والمشاركة والإلمام شيء طيب ولكن لا يجوز أن يكون على حساب التخصص، فإن موطن المشاركة ومحلها المناسب هو بعد أن يوجد في الأمة متخصصون في كل علم وكل مجال حتى تجد الأمة كفايتها، فإذا تمكن الإنسان من ناصية علم وأصبح قادرا على أن يقدم خدمة للأمة فيه فسح المجال له للمشاركة والإلمام، أما أن يأخذ الإنسان

مـــن هـــذه العلوم أطرافا فلا يمهر في واحد منها فإن ذلك هو سبب التأخر ولذلك قالوا : صاحب علم يغلب صاحب علوم .

هـــذه الأسباب وأسباب أخرى معروفة جعلت التأخر سمة في هذه الأمة بعد أن كانت متقدمة سابقة أشواطا، وبعد أن كانت هي المعلمة ولها القيادة والريادة في شتى أنواع العلوم .

وإذا كـــان هذا التأخر تربويا وتعليميا فإن هناك أسبابا فكرية للتأخر . إن التأخر العام في المسلمين في نهضتهم وحياتهم وبعدهم عن دينهم وغفلتهم عمـــا تتطلـــبه أنظمـــة الحـــياة التي تبدلت في المجال السياسي والاجتماعي والاقتصـــادي كـــل هذا التغير لم يواكبه المسلمون، فقد تغيرت طرق الحياة وظل المسلمون في سبات عميق وكانت الخسارة مزدوجة، صارت هذه الأمة عالـــة عـــلى غيرها، وحرمت العلوم من اللمسات الإسلامية التي تعطي هذا العـــلم حقـــه فتجعله داعيا للإيمان ولا تجعله ألعوبة في أيدي ذوي الأهواء والأمـــزجة يصرفونه كما يشاؤون، ذلك أن الثقافة لها تأثر كبير بالظروف، فإذا فقد الاستقرار والأمن والكفاية المعاشية فكيف يفكر الإنسان؟ ومن هنا يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه : لا تستشر من ليس في بيته دقيق ، أي من لم تكن لديه كفايته و لم يكن آمنا في سربه مطمئنا على حياته عنده قوت يومه، فكيف تطلب منه أن يصرف ذهنه وفكره إلى الإنتاج العلمي والابتكار والكشـــوف، إذ لكل شيء أسبابه، ولكل أمر دواعيه، وعلينا أن نزيح هذه الأســـباب التي أدت إلى تأخر المسلمين في العلوم وجعلتهم إمعة و أتباعا مع أن هـــذه الأمة هي الأمة الوسط التي يستشهدها الله على الناس، وهي خير أمة أخرجت للناس تقودهم لكي لا يأخذوا علم الحياة الدنيا وينسوا الآخرة: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [1] .

(١) سورة الروم / ٧ .

٢٣ سبل النهضة بالعلوم

سبق الحديث فيما مضى عن أسباب تأخر المسلمين في علوم الحياة وتبعيتهم لغيرهم من الأمم والشعوب، وهو غير ما عهدت عليه هذه الأمة، فإذا كان قد تم وصف الداء فكيف يكون الدواء ؟ إن الدواء لا ينبغي أن يكون مجملا وإنما يجب أن يكون مفصلا، إن الدواء يكمن في أمور كثيرة، ووسائل عملية تؤدي إلى نهضة هذه الأمة في هذا الجانب .

إن أول هذه الوسائل أن تدون العلوم التطبيقية باللغة العربية بحيث تصبح لغتنا غنية بمؤلفاتها فيها، حيث إن الحاجة ماسة إلى كتب عربية في كل فرع من فروع العلم، ففي حين أن كل لغة من اللغات الحية غنية بكتبها ومؤلفاتها العلمية نجد أن لغتنا العربية تتميز بفقرها المدقع في المؤلفات العلمية، بل لا يكاد يوجد كتب أساسية في فروع العلم يمكن اعتبارها مرجعا كافيا يستغنى بها عن المراجع الأجنبية والكتب التي تظهر يكون مستواها عادة منخفضا لا يزيد عن مستوى كتب التعليم ويترتب على هذا أن تصبح هذه العلوم مهنا أو حرفا لبعض الناس والذي نعلمه من سيرة الإسلام والمسلمين أن العلوم إنما هي معارف وهي ثقافة تنتشر في الأمة بلغتها وبمفاهيمها وأفكارها وهذا يتيح أن يكون الكل مسهما في هذه العلوم سواء كان مختصا أو غير مختص، فإذا كان مختصا فإنه يولد فيها ويزيد كشوفها، وإذا لم يكن مختصا فإنه يبرمج هذه العلوم وينقلها إلى العمل والتطبيق .

إن من المؤكد أنه إذا لم تنقل هذه العلوم إلى لغتنا بقينا عالة على غيرنا من الأمم، ليس عالة في الكشف والإنتاج فقط ولكن عالة في التلقي والتطوير، وتبقى دائرة العلم محصورة في النفر القليل الذين يستطيعون قراءة الكتب الأجنبية العلمية وفهمها، وحالنا اليوم تشبه ما كانت عليه حال المسلمين في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، أو ما كان عليه حال أوروبة في العصور الوسطى ، لقد تنبه المسلمون إلى ضرورة نقل علوم الإغريق إلى لغتنا العربية وقام الخلفاء والأمراء بتشجيع العلماء على الانقطاع إلى النقل والتأليف . ولعل الجميع يذكرون المكتبة الكبرى التي كانت أيام الخليفة المأمون والتي كانت تسمى دار الحكمة .

إن نقل هذه العلوم إلى لغتنا يعيد إليها وإلى أمتنا مجدها العلمي، إن هذا النقل يتيح مهمة تشجيع التأليف والتدوين. والطريقة المثلى أن تعهد الدول القادرة إلى العلماء في كل فرع من فروع العلم بنقل الكتب العلمية وتأليفها وأن تقوم هذه الدول بطبعها ونشرها ولا يجوز أن يبقى هذا مجهودا فرديا .

إن الواقع الآن أن العناية الكبرى توجه إلى ترجمة الكتب في الآداب الغربية والنتاج القصصي والمسرحي والذي يطغى على تراثنا الأدبي الذي نعتز به ، وإن الأولى أن توجه الهمم وتصرف الجهود إلى الجوانب العلمية التي نفتقدها ونفتقر إليها .

والملحوظ أيضا أن جهود التعريب التي تبذلها المجامع العلمية تكون خطوة عسيرة لأنها تعمل في فراغ تعمد إلى هذه الكلمات الأجنبية وتضع لها المصطلح المقابل دون أن يكون هناك حركة علمية تتولد عنها هذه المصطلحات، واللغة العلمية وليدة التفكير العلمي، والمصطلحات العلمية في اللغات الأوربية إنما نشأت بهذه الطريقة ونتجت عن نمو العلم والتأليف ، ومن العبث أن يقوم مجمع بفرض المصطلحات على المؤلفين فرضا إنما تأتي

مهمـــة المجـــامع بعد مهمة المؤلفين لا قبلها ، فالمجمع اللغوي يجمع ما ورد في الكتب العلمية من مصطلحات ويدونها ويفسرها ويصححها عند الحاجة. وهكذا تؤدي هذه المصطلحات إلى تطور اللغة ونموها .

والوســيلة الثانية من وسائل النهضة في العلوم هو أن نثير العلاقة القوية بـــين حياتـــنا العلمية الماضية والحياة المستقبلية التي نرمي إليها، هذه العلاقة لا تـــتوثق بـــلمحات تاريخية بحتة، وإنما بتحريك الثقافة العلمية التي ترتبط بـــتاريخ الـــتفكير العـــلمي لهذه الأمة الإسلامية، إن هذه الأمة الإسلامية قد توصلت إلى كثير من الآراء والنظرات العلمية والكشوف في سائر ميادين البحث بعضها ولدته وبعضها نقلته وهذبته واستساغته من آراء غيرها ودخل في صـــلب المعرفة الإسلامية على مر العصور والأجيال، وإن من واجبنا أن نربط حياتنا العلمية الماضية بمستقبلنا فيكسبنا ذلك قوة وحياة وإلهاما .

إن الوسيلة العملية لتحقيق هذا هي في أمرين :

أن ننشر الكتب العلمية التي وضعها المسلمون والتي نقل عنها الغربيون ككتـــب الخوارزمـــي وأبي كـــامل في الجبر والحساب، وكتب ابن الهيثم في الطبـــيعة، وكتب البيروني وابن رشد وابن سينا وغيرهم من قادة التفكير العـــلمي وعظمـــاء الباحـــثين المسلمين المدققين، هذه الكتب موجودة الآن ولكـــنها حبيســـة المكتـــبات وأسيرة المتاحف ، وإن من واجب المسلمين أن ينافسوا غيرهم فيها . إن الغربيين يعتنون بهذه الكتب ويقومون بترجمتها وشرحها والتعليق عليها وهذا واجب إسلامي يجب أن لا نقصر فيه .

الأمـــر الـــثاني أن نمجد جهود السلف من علمائنا وباحثينا فيكون هذا حافزا للاقتداء بهم وتتبع خطاهم، وقد بذلت جهود قليلة جدا في هذا السبيل ويجب تنميتها وإعظامها حتى يكون لها أثرها، فمثلا هناك الكشوف الكثيرة في الفلـــك ســـبق إلـــيها العـــلماء المسلمون ، منها إدخال خطوط التماس

في الحسابات الفلكية ، ووضع الجداول لحركة الكواكب وهو ما يسمى بالزيج ، وتحديد سمة الشمس تحديدا دقيقا وتدرجه في النقص ، وتقدير تقدم الاعتدالين تقديرا مضبوطا، وكان لهم أول تحديد مضبوط لمدة السنة .

كما أنهم قدموا أمورا أخرى في العلوم الأخرى التي أشار إليها أحد علماء الغربيين وهو جوستاف لوبون في كتابه " حضارة العرب " فقد أشار هذا العالم إلى أنه في العلوم الطبيعية كان لعلماء المسلمين نظريات ومعلومات عالية في علم الطبيعة في نظرية البصر، واختراع أجهزة آلية من أبدع ما يكون، واكتشاف أهم الأجسام التي تتصل بالكيمياء مثل الكحول والحامض الآزوتي والحامض الكبريتي، وكان أهم الأعمال الأساسية في علم الطبيعة كالتقطير، وتطبيق علم الكيمياء في الصيدلة وفي الصناعة واستخراج المعادن وصنع الفولاذ والصباغة وكان لهم في العلوم الطبية أمور كثيرة معروفة .

هذه الكشوف والأمجاد لو وجهنا إليها الأنظار، وكشفنا عنها الغبار، ونوهنا بها في المواسم والندوات والمؤتمرات، ونشرنا الكتب التي اشتملت عليها نكون قد أوجدنا أشد الحوافز للناشئة وللباحثين ليصلوا الماضي بالمستقبل ويطوروا هذا الحاضر وهو ما نصبو إليه والله من وراء القصد .

٢٤ تقسيم العلم إلى نافع وغير نافع

نـــتحدث الآن في أمر تردد في بعض الكتب وهو تقسيم العلم إلى نافع وغـــير نافع ، وكان لهذا التقسيم أثره في الحملة على بعض العلوم ولا سيما العلـــوم التي لا تتصل مباشرة بالدين . إن هذا التقسيم إنما كان مثار شبهة على الحضارة الإسلامية، ولا بد من دفعها من خلال البحث في جوهر هذا التصـــنيف فقد ذهب بعض العلماء يصنف العلوم فيقسمها إلى علوم تتصل بالدين وعلوم تتصل بالدنيا مع تقريرهم بوضوح أن تعلم العلوم كلها فرض عـــلى هذه الأمة على الكفاية، فكيف يكون العلم نافعا وغير نافع في ظل ما ورد في الحديـــث الشـــريف من الاستعاذة من علم لا ينفع ؟ ومع أن بعض شـــارحي هـــذا الحديث قرر أن من العلم علما نافعا وعلما غير نافع ، فقد حســـم الموقـــف الإمام عز الدين بن عبد السلام الذي كان يسمى سلطان العـــلماء، يقول هذا الإمام : " العلوم كلها شريفة وإنما تختلف رتب شرفها باختلاف رتب متعلقاتها ". فهذه العلوم ليس منها علم غير نافع فإن الله عز وجـــل خلق هذه العلوم وجعلها مفيدة للبشر وعلمهم إياها : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْـــمَاءَ كُلَّهَـــا ﴾ [1] . ومع هذا قد يكون العلم غير نافع، إذا استخدم في وجوه ضارة ماديا أو معنويا فيما إذا قصد به الإنسان التشدق ، وأن يكون مباهاة للعلماء ومجاراة للسفهاء وجمعا لوجوه الناس إليه، فالعلم في أصله كله نـــافع وإنمـــا يفسد بفساد الأغراض ولذلك قد عد العلماء العلوم كلها على

(١) سورة البقرة / ٣١ .

صـــعيد واحد ذكروها على قدم المساواة وطلبوا من الأمة الإسلامية أن تهتم بهذه العلوم .

ولا يخفـــى أن بعض العلوم تتمحض للشر . وقد تحدث أيضا لكشف الشـــر وقـــد ذكر الإمام الغزالي السحر والطلسمات والشعوذة والتلبيسات كمثال للعلوم غير النافعة ، ومع هذا بين هو وغيره أنه إذا تعلم الإنسان شيئا مـــن هذه العلوم ليكشف ما يحيق به، وليدفع الأذى والبأس الذي ينـــزل به من مثل هذه العلوم فإنه يكون كما قال القائل :

اعـــرف الشـــر لا للشـــر لكـــــــن لتوقـــــــيه
ومـــن لـــم يعـــرف الشـــر من الخـــير يقـــع فيـــــــه

وبعض العلوم التوغل فيها والتكلف يعتبر عبئا على الإنسان وهذه العلوم أشـــار إليها الحديث الشريف منها علم الأنساب، ومنها علم النجوم، ومنها بعـــض علوم اللسان التي يتعمق فيها الإنسان يقول رسول الله صلى الله عليه وســـلم[1] : " تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا، وتعلموا مـــن العربية ما تعرفون به كتاب الله عز وجل ثم انتهوا، وتعلموا من النجوم ما تهتدون به من ظلمات البر والبحر ثم انتهوا . " هذا الحديث الشريف فيه إشارة إلى العلم غير النافع .

ومـــن الناحية الأخروية العلم غير النافع هو الذي لا تعمل به لأن هذا العـــلم يكون حجة على الإنسان ويكون مضيعة لوقت الإنسان، فإذا تعلم الإنسان ما لا يستفيد منه بأن يختزنه في دماغه دون أن يكون له تطبيق عملي فإنه يكون قد أضـــاع على نفســـه فرصة تعلم علوم أخرى نافعة .

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي .

ومـــن هـــنا كان لكل علم حد لا يتعداه ولا يقصر عنه، فبعض العلوم نظـــرية وبعض العلوم عملية وقد أشار ابن ساعد الأنصاري وهو ممن كتب من إحصاء العلوم وتصنيفها إلى أن لكل علم حدا لا يتعداه ولا يقصر عنه، وذكـــر مثالا لتعدي الحدود المرسومة للعلم أن يقصد الإنسان إقامة البراهين على علم سبيله النقل، كعلم النحو، وأن يعمل العكس وهو أن يقنع بالجدال والدراسة النظرية في علم سبيله الحس والحركة كعلم الهيئة وعلوم الطبيعة .

والخلاصـــة أن التطبـــيق العملي هو الذي يجعل العلم نافعا لصاحبه . أما إذا ظلت هذه العلوم نظريات وكان الغرض منها المفاخرة والمكاثرة فإنها تكون عبئا و حجة على صاحبها، وهذا سبيل يجعل العلم غير نافع .

ثم أن بعـــض العلوم التي تطرق إليها العلماء وصفوها بأنها غير نافعة، والسبب في هذا ما لابس هذه العلوم واختلط بها مما ليس منها ذلك أن بعض العلوم لم تكن وليدة في الإسلام وإنما نقلت من أمم وشعوب أخرى، وكان الأمان والضمانات التي وضعت لتكون هذه العلوم نقية هو الرقابة التي قام بها عـــلماء المسلمين ، فجردوا هذه المقولات العلمية مما اختلط بها ومما تسرب إليها مما هو دخيل عليها ، وهذا الواجب علينا الآن أن نقوم به، فإننا نلمس أن قســـما من العلوم التي يتعلمها المسلمون (علوم الحياة) أكثرها منقولة ومترجمة أو مأخوذة بلغاتها، وهي مصوغة صياغة غير إسلامية فتجد في كثير من العلوم ما يورث الشك و يلبس على الإنسان عقيدته .

ولابـــد بعد أن أشرت إلى هذا الموضوع من بيان الطريقة لتصفية هذه العلوم وصبغها الصبغة الإسلامية، كيف يتم هذا ؟ يتم هذا بإزالة الازدواج الـــذي يشـــعر به الناس ويشعر به المتعلمون، هذا الازدواج يزول إذا وجد في عـــلماء الدين من يدرك ما التبس بتلك العلوم، ووجد في المهرة في تلك

العلـــوم من له ثقافة إسلامية تمكنه من أن يميز الطيب من الخبيث ، وإن هذا العمل لا يكفي فيه الجهـــد الفردي وإنما يجب أن توضع له الأسس وتعدّ له الـــبرامج لكي تتناول مقولات هذه العلوم واحدة بعد واحدة فيميز ما كان منها أساسيا وما كان منها دخيلا، وينظر لها المقابل سواء فيما نقل من علوم الإسلام من علوم الأخلاق وعلوم التصوف وعلوم الفقه والتفسير والحديث، فإن كثيرا من العلوم التي نظنها جديدة، كعلم الفلسفة والتربية وعلم النفس وعـــلم الاجـــتماع ، موجودة في كتب المسلمين ولكنها تحت أسماء أخرى وعـــناوين مختلفة ، فإذا أخذت هذه المقولات ووجد لها المقابل، سواء كان مقـــابلا تراثيا أو كان مقابلا مستفادا من الموازين التي نملكها في هذا الدين وهـــي ميزان النقل الصحيح علم مصطلح الحديث وميزان التفكير الصحيح علم أصول الفقه، فإننا نستطيع أن نوجد البدائل وأن نقوم هذه العلوم تقويما صحيحا و نستفيد منها .

وهكذا يتبين أمران :

أن كل العلوم نافعة وإنما يأتي الضرر مما يلابسها ويشوبها .

أن صياغة العلوم صياغة إسلامية ليست بالمطلب اليسير وليست بالأمر المستأخر ، وإنما هو واجب سريع لأن ضمان عقيدتنا وضمان سلامة نشأتنا وضمان استقامة هذه الأمة واستعادة أمجادها ، إنما هو رهين بأن تكون هذه العلـــوم مدعاة للإيمان لا مدعاة للتشكيك، فنحن لا نريد أن يبني عالم الدين ومـــدرس التربـــية الإســـلامية ثم يأتي معلم العلوم والأحياء والنبات فيهدم من حيث يبني ذاك :

متى يبلغ البنـــيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

٢٥ معوقات العلم

لقد كان فيما مضى طرح كثير من الحوافز لطلب العلم والازدياد منه ومع هذا فإن من الضروري الإشارة إلى موانع العلم والعوائق التي تعوق عن طلبه، وهذه العوائق كثيرة وأحسن من لخصها ابن ساعد الأنصاري الذي كتب عن إحصاء العلوم وتناول المقدمات التي لا بد منها للمتعلم ، يقول : إن موانع العلم تنحصر في ستة موانع وهي :

١ - الوثوق بالزمان وانفساح الأمل، فعلى الإنسان أن يزداد علما في كل يوم يمر عليه فمن يزداد فيه علما يفتقد البركة من ذلك اليوم، ولكن طبيعة الإنسان هي التأجيل والإمهال فهو يثق بأن الزمان طويل وأن الفرص كثيرة ويفسح الأمل لنفسه، وطول الأمل يقتل العمل، ولا يدري الإنسان أن الفرص المضاعة لا تعوض ولا تقضى، وفي هذا يقول ابن ساعد : أسباب الدنيا تكاد تتزايد على أعداد اللحظات، من أمور ضرورية وغيرها ، وكلها شواغل، والأمور التي يتم بمجموعها التحصيل إنما تقع على سبيل البحث والتفتيش وإذا تولت الفرصة فهيهات أن يعود مثلها .

٢ - من موانع العلم أيضا الوثوق بالذكاء، وهو أن يستمع المتعلم إلى أمر فلا يتأمله ، أو يجد كتابا مهما فلا يقرؤه، أو يجد فرصة للدرس فيتكل على ما عنده من موهبة ، وكثير من الطلبة يضيع فرص التعلم بهذا

السبب ، وكثير من الناس الأذكياء فاتهم العلم لأنهم اعتمدوا على ذكائهم، مع أن العلم لا يكون بالذكاء وحده ، وإنما يكون بالذكاء والتحصيل معا ، فبالتحصيل يتقن الإنسان الكثير من العلم في القليل من الزمن ، أما الذكاء فإنه ظن وتفكير قد يساعد الإنسان وقد يخونه .

٣ - ومن موانع العلم أيضا انتقال الإنسان من علم إلى آخر قبل أن يحصل منه قدرا يعتد به، وانتقاله من قراءة كتاب قبل ختمه، وهذا أمر نشهده ويعرفه الكثيرون فإن الصبر مفتاح العلم والمواظبة والمداومة أحب الأمور إلى الله يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحب العمل لله ما داوم عليه صاحبه "[1].

٤ - كما أن من موانع العلم طلب المال والجاه والركون إلى اللذات والأخذ بالعاجل من الكسب فرارا من الانتظار والصبر وكثير من الناس يمنعهم عكس هذا الأمر، وهو ضيق الحال وقلة ذات اليد وعدم المقدرة المادية التي تعين على الاشتغال بالعلم، وكلا الأمرين يقضي على العلم في مهده، فالذي يترك فرص التعليم ويسرع إلى جمع المال وتحصيل الجاه ويركن إلى اللذات والذي تضيق ذات يده عن كسب العلم وتحصيله يفتقد العلم منذ البداية ولذلك يقول القائل :

رب علم أضاعه عدم المال وجهل غطى عليه النعيم

٥ - ومن أسباب الحرمان من العلم إقبال الدنيا على الإنسان وتقلبه في الأعمال وولايته المناصب، فالعلم يحتاج خلوة وفراغا وإقبالا، وإذا شغل الإنسان بهذه الأمور الدنيوية فإنه يصبح بعيدا عن العلم .

(١) رواه ابن ماجه .

هذه أمور عامة ، وهناك أمور خاصة تسبب الحرمان من العلم :

أولهـــا تـــرك السؤال فلا يتعلم العلم من يتقاعس في السؤال، والسؤال نصـــف العـــلم ، فإذا سألت فإنك تتصور الأمر الذي تسأل عنه ولا يبقى إلا الجـــواب، والسؤال يستدعي العلم ويستخرجه من مكامنه، ولذلك سئل ابـــن عباس فقيل له : بم أخذت هذا العلم الذي تحويه فقال : بلسان سؤول وقلب عقول .

ومن أسباب حرمان العلم سوء الإنصات وعدم إلقاء السمع، يقول الله عـــز وجل : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

ومن أسباب حرمان العلم سوء الفهم، فالذي لا يتأنى حتى يتلقى العلم ويبادر للاعتراض من أول كلمة يسمعها أو أول فكرة تتطرق إلى ذهنه فإنه يحرم من العلم، فمن أساء فهما أساء إجابة، وكثير من الأمور يعيبها الإنسان وآفتها من الفهم السقيم

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهـــم السقـــيم

كمـــا أن حرمان العلم يكون بعدم الحفظ فالعلم لا يكون بالكتب وإنما يكـــون بـــالإدراك والتلقي واستقائه من الكتب وتكوين الملكات العلمية ، والملكـــات العلمية أن يتقن تعاليم علم ما حتى لا يحتاج معه إلى استحضار القواعد وملاحظتها، فإذا صارت العلوم ملكات فإنها تغني الإنسان عن حمل الكتب، فالعلم ما حمل وليس العلم ما وجد في القماطر والكتب .

وإن من أسباب حرمان العلم عدم نشره وتعليمه بين الناس، فمن خزن علما ابتلاه الله بنسيانه وهذا فضلا عن العقوبة الأخروية التي تنتظره .

(١) سورة ق / ٣٧ .

كما أن من أسباب حرمان العلم عدم العمل به فإن العمل به يعين على تذكـــره وتدبره ويدعو إلى مراعاته والنظر فيه، فإذا أهمل العمل بالعلم نسيه صـــاحبه، ولذلك كان السلف الصالح يقولون كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به .

فهذه الأسباب تجعل الإنسان يأخذ من العلم بوسائله وبأسبابه، ويحصل العـــلم بحسن السؤال وحسن الإنصات والاستماع وحسن الفهم والفحص والحفـــظ والتعليم ، وبغير هذه الأسباب لا يستطيع الإنسان أن يأخذ العلم لأن لكل شيء أسبابه ومن أخذ أمرا بغير سببه كلف نفسه شططا.

هذا، وإن التحصيل للعلم له وسائله، فمن وسائل العلم الكتاب والمعلم وقـــد كان القدماء يفاضلون بين الكتاب والمعلم، فبعضهم يفضل الكتاب، لأنه مهما بلغ جمود الكتاب فإنه لا يحول بين الفهم وبين المتعلم، أما إذا كان المعـــلم لـــيس على ما ينبغي فإنه قد يعطي المتعلم علما غير صحيح، وأكثر القدمـــاء آثـــروا المعلم ، لأن المعلم يحقق المعرفة كما يحقق القدوة والتمرين العمـــلي، ولذلـــك كانوا يذمون من يأخذون العلم عن الصحف والأوراق ويتـــندرون بما يقع لهؤلاء المتعلمين من الكتب دون تلق وتلقين من هفوات وتصـــحيفات، لأنهـــم قد يقرؤون عبارة على غير وجهها فإذا بهذه العبارة تســـوقهم إلى الضـــلال المبين، فالمعلم هو مفتاح العلم والمعلم يقدر أن يعلم بـــدون كـــتاب إذا كانـــت لديه الملكة، أما الكتاب فلا يستطيع الإنسان أن يستفيد منه إلا إذا قرأه ، ومع هذا فإن التآليف هي أوعية العلم .

وقـــــد اهتم المسلمون بكتابة المؤلفات وأكثروا منها حتى آل الأمر إلى أن يقول القائل : " ما أفسد العلم إلا كثرة التأليف " .

والسبب في هذا أن بعض المؤلفات كانت لشهوة التأليف و لم تكن تحقق المقاصد التي لا بد منها للتأليف .

وقد بينوا أن التآليف يجب أن لا تخلو من أحد سبعة أمور :

١- أن تشرح أمرا مغلقا .

٢- أو تصحح أمرا خطأ .

٣- أو تودع معرفة جديدة .

٤- أو ترتب علما متناثرا .

٥- أو تجمع علما مفرقا .

٦- أو تختصر علما فيه تطويل .

٧- أو تتم أمرا ناقصا [١] .

ولكن من رحمة الله كثرة التأليف حتى في الموضوع الواحد إذ لولا تكرار التأليف وكثرته لضاع علم كثير في النكبات التي تعرضت لها الأمة، فكان فيما تكرر من الكتب استمرار للمعرفة عن طريق تلك البدائل .

(١) انظر مقدمة كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة .

٢٦ حظ النساء من العلم

في أواخـــر حديثنا عن العلم والازدياد منه قد يتساءل الإنسان عن حظ النســـاء منه، فما هو حظ المرأة من العلم والتعليم ؟ وما موقف الإسلام من تعليم المرأة ؟

إذا كان هذا الموضوع في أيامنا أمرا معتادا فإنه كان له في التاريخ شأن خـــاص، ففي الجاهلية كانت المرأة لا تعد شيئا، كما تقول عائشة رضي الله عـــنها : " كنا لا نعد النساء في الجاهلية شيئا حتى جاء الإسلام فأنزل فيهن ما أنزل وفرض لهن ما فرض"[١] فما الذي وضعه الإسلام في أمر تعليم المرأة؟

إن أحكـــام الإسلام وشرائعه توجه للإنسان المسلم في شخصه، سواء كـــان ذكرا أم أنثى، ومن هنا يقول الله عز وجل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَـــرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[٢] . فالعمل الصالح والعلم الـــنافع لـــيس مقصـــورا عـــلى الرجال وحدهم وإنما يشترك فيه المسلمون والمســـلمات، ويروى أن سبب نزول قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّـــادِقَاتِ وَالصَّـــابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَـــدِّقَاتِ وَالصَّـــائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِـــرِينَ اللَّـــهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٣]

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .
(٢) سورة النحل / ٩٧ .
(٣) سورة الأحزاب / ٣٥ .

هـــو أن النســـاء افـــتقدن ذكرهن على وجه الخصوص في كثير من الآيات الكـــريمة، وخلن أن في ذلك حرمانا لهن من الذكر الحسن والتنويه بشأنهن، فنزلـــت هذه الآية بطولها، وهي تعدد المسلمات مع المسلمين والمؤمنات مع المؤمنين إلخ ، وتبين أن كل آية تناولت الرجال فإنها تشمل النساء أيضا، وقد ســـبقت الإشارة إلى أن شراح حديث رسول الله الذي يقول فيه : " طلب العـــلم فريضة على كل مسلم "[1] فهموا من روح التشريع أن هذا الحديث نفسه يشمل المسلمة فقالوا : " أي ومسلمة ".

لقـــد كان تعليم النساء في الجاهلية أمرا مفتقدا إلا قلة من النساء عرفن بالتعـــلم والتعلـــيم، وكان ممن اهتمت بالكتابة وتعلمها امرأة تدعى الشفاء العدوية، هذه المرأة الصالحة كانت تعلم النساء الكتابة، وقد بلغ أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنى عليها وحضها على ذلك ، فقد روي في كتب الســـيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " للشفاء العدوية علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة "[2] والنملة داء في الجلد والرقية دعاء يدعى به لزوال هذا الألم وقد أخذ العلماء من هذا الحديث الشريف تصريحا أكيدا بمشروعية تعليم المرأة في ذلك الوقت الذي كان الجاهليون لا يرون هذا الأمر مستساغا .

وانطلق النساء المسلمات يتعلمن ويعلمن، يعلمهن أزواجهن ومحارمهن ويتعـــلمن في البـــيوت ويحضرن المساجد، فإذا رأين أن حظهن من التعليم لم يكـــن كافيا طلبن أن تعقد لهن مجالس للتعليم على وجه الخصوص وهذا مـــا حـــدث مـــن صـــحابيات رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن بعض الصـــحابيات قلـــن لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله، ذهب

(١) رواه ابن ماجه .
(٢) رواه أبو داود والدارمي .

الـــرجال بحديثك، أي أن الرجال ازدحموا على مجالس رسول الله صلى الله علـــيه وســـلم فتعذر على بعض النسوة أن يدخلن تلك المجالس فبعث لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهن أن يجتمعن في بيت إحداهن فاجتمعن في ذلـــك البيـــت وجاء رسول الله وعلمهن مما علمه الله، ونلحظ من هذا الحديـــث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأب تعليم النساء بل حض عليه ولكنه علمهن ما يحتجن إليه، فقد علمهن ما يتصل بالصبر والاحتساب عـــند فقد الأولاد وعلمهن حقوق الزوج، وعلمهن تربية النشء، وفي صنيعه هـــذا عليه الصلاة والسلام التنويه بأن تعليم المرأة يجب أن ينحى فيه المنحى الـــنافع لهن فلا يكون التعليم نوعا من المكاثرة والمباهاة وإنما يكون من وضع الأمر في موضعه المناسب .

لقد حفل التاريخ الإسلامي بنماذج كثيرة من النساء العالمات فمنهن من تفقهن في الدين حتى بلغن درجة حام حولها كثير من الرجال، ومثال هؤلاء عائشـــة بنـــت الصديق رضي الله عنها فقد كانت من المكثرات في الحديث وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونها عما لا يعلمون من خبر رسول الله، بل كانت إلى جانب ذلك عالمة بأشعار العرب، يقول عطاء صـــاحب ابن عباس : كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس، وقال عروة بن الزبير: " وإن كان يترل شيء عند عائشة إلا أنشدت فيه شعرا " فإنها كانت شديدة الاستحضار لشعر العرب والاستشهاد في كل مناسبة بما يناسبها .

وكذلـــك كانت من فقيهات الصحابيات أم الدرداء زوجة أبي الدرداء واسمها خيرة بنت أبي حدرد، وكان هناك فقيهات أخريات وأديبات وشواعر وكان من هؤلاء النسوة من يزاولن مهمة التعليم والتعلم، فقد ذكر بعض من أرخ للأندلس أنه كان في قرطبة في الجانب الشرقي منها مائة وسبعون امرأة كـــن يجدن الكتابة بالخط الكوفي ويكتبن المصحف به وهذا مثال يدل على مـــدى الازدهـــار العـــلمي في أوساط المرأة ومدى الاهتمام بتثقيف النساء وتعليمهن .

هـــذا، وإن بعـــض الناس يحاول أن ينظر إلى العهد القريب أيام كانت فرص التعليم قليلة وكان المسلمون في سبات عميق، فكان هؤلاء المغرضون يحاولون أن يربطوا بين هذا الوضع وبين المبدأ، وكثيرا ما يكون الوضع مخالفا للمبدأ، ويستشهد هؤلاء بقول أبي العلاء المعري في النساء :

عـــلموهن الغزل والنسج والردن ... وخلـــوا كـــتابة وقـــراءة
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص ... تجـــزي عن يونـــس وبـــراءة

وإن كـــلام أبي العلاء المعري هذا ليس نابعا من تعاليم الإسلام وإنما هو نابع من مخالفته المألوف، والذين كتبوا وقرؤوا عن أبي العلاء المعري يعرفون لـــه شـــيئا مـــن التفرد في الأمزجة والأفكار والفلسفة، وليس ذلك الاتجاه مســـتوحى من شريعة الإسلام فإنها جاءت تعلم المرأة، روي أن رسول الله صـــلى الله علـــيه وســـلم زوج رجـــلا من امرأة على أن يعلمها ما يحفظ من القرآن ، فهذا أبلغ تكريم للتعليم وأهم تأكيد لتعليم المرأة .

هذا، و ينبغي أن يكون التعليم ملاحظا فيه ترتيب الأولويات ، فإن هذا التعليم إما أن يكون من وجه الفريضة التي تفترض على المسلمة كما تفترض عـــلى المسلم وهذا أمر يستوي فيه الرجال والنساء فتتعلم المرأة ما يهمها من أحكام دينها وما تتعرف به الحقوق الواجبة عليها تجاه زوجها وتجاه أولادها وتجـــاه أمتها . أما إذا كان التعليم من باب فروض الكفاية وتحصيل الملكات العلمية فإنه أمر مباح يتسابق إليه الرجال والنســـاء ، وليس هناك ما يمنـــع المـــرأة التي يمكنها التوسع في هـــذا المجال دون أن تهمل الأولويات المطلوبة منها أصالة من أحكام الشريعة ومبادئها .

★★★